مقام المتكلم في القرآن الكريم - دراسة تداولية -

هادي سعدون هنون العارضي

المقدمة:

الدراسة هي مشروع الدكتوراه لهذا العام، ومن الصعوبة بمكان أن نكتب في هذا البحث جميع فصول المشروع، ومباحثه بشكل مفصل، ولكن سنختار أمثلة موجزة لكل فصل من الفصول على أن تصل فكرتنا إلى المتلقي، وبحدود الصفحات المسموحة في هذا المقام فعنوان الرسالة يضع مشكلة أساس هو (مقام المتكلم في القرآن الكريم)، وستمثل البؤرة الدلالية المهمة في الدراسة.

أما طبيعة الدراسة والمنهج فقد أردنا أن تكون تداولية، لأننا نعتقد ان تقسيم البحث (الخطة) يجب أن يكون منبثقا من الموضوع الأساس، وليس من المنهج المتبع، وهذا ما قمنا به عند تقسيم البحث على ثلاثة فصول سبقها تمهيد.

أما المنهج فكان التداولي ؛ لأننا رأينا فيه المنهج الأنجع والأقرب إلى طبيعة الموضوع ؛ فنحن بأزاء نظرية مقامية في خطاب قرآني عني كثيرا بالمقام، وربما يسأل سائل لمَ لم تكن الدراسة بلاغية ؛ لأن البلاغة عنيت بالمقام أيضا؟

نقول إن التداولية وسعت من مفهوم المقام فلم يعد مختصرا بلحظة التكلم كما هو معروف في البلاغة بل اتسع نطاق المقام في التداولية إلى المقام الإجتماعي، والمقام الثقافي والمقام العام الزماني والمكاني الذي يمتد بعلاقاته بالمتكلم والمتلقي في غير لحظة التلفظ وإنما في أمكنة وأزمنة تالية عليه، وإن غيرنا السؤال عن سبب اختيار المنهج التداولي وليس البلاغي نقول:

أولا: إن البلاغة عندما فُهمت على أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته هذا يعني أنها قدمت مجموعة من الشروط والقوانين والقواعد إلى المتكلمين النخبة من خطباء وشعراء من أجل أن يكون كلامهم مؤثرا مقنعا، ونحن في موضوعنا هذا نحتاج إلى منهج علمي هدفه كشف المعنى، وهنا يتضح الفارق بين البلاغة بوصفها كلاما موجها للأدباء وبين التداولية بوصفها منهجا علميا تحليليا هدفه كشف المعنى المقامي للغة المستعملة واللغة الأدبية ؛ لذلك فإن اختيارنا للتداولية كان من هذا المنطلق مع الأخذ بعين الاعتبار أننا لن نغفل جهود البلاغة التي وجهت عنايتها إلى المعنى المقامي وسنشير إلى ذلك في بابه وموضعه.

ثانيا: إننا عندما نستعمل منهجا أو نظرية غربية في دراسة نص عربي له خصائصه الفنية والجمالية والدلالية غير ملزمين على تطبيق المنهج بحذافيره، وهذا مسوغ في جميع الفلسفات والنظريات في العالم، فهناك اختلاف بين الفلسفة أو النظرية في منشئها وبين تطبيقاتها في حواضر وبيئات أخرى مثلا الفلسفة الوجودية عند بول سارتر تختلف في بعض جوانبها عندما طبقت على شعراء عرب مثل سميح قاسم وغيره، وهنا يمكن الإفادة من مقولات نظرية أو منهج ما مع إضفاء تعديلات علمية بما يقتضيه النص المدروس.

أهداف البحث:

تسليط الضوء على زاوية جديدة من زوايا الخطاب القرآني وهي (أثر المقام في صياغة النص)، وكذلك الإفادة من المقاربات المعاصرة في دراسة النص القرآني بما يتناسب معه بوصفه نصا له خصوصية فكرية وجمالية ودينية وكذلك تطوير البلاغة القديمة التي ضيقت من مفهوم المقام وحصره (بمقام المتكلم لحظة التلفظ) ليشمل المقام الاجتماعي والثقافي والتاريخي.

الأسئلة التي يجيب عنها البحث:

من هو الأصل المقام أم السياق أم مقتضى الحال أم حال المتكلم؟ وهل إن نوع الخطاب وأسلوبه يشكل أساسا مقام المتكلم في لحظة الخطاب؟ و هل إن مقام المتكلم يؤثر في صياغة النص؟ وكيف يكون ذلك؟

منهج البحث:

سنتقصى الأساليب البلاغية في القرآن الكريم ونرصد مقاماتها على وفق الدراسة التداولية بمعنى أننا سنستبعد

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(لسانيات الوضع) التي يقتصر اهتمامها على الجانب البنيوي والتوليدي، ويأتي اختيارنا للسانيات التداولية ؛ لكونها تهتم بالعملية التواصلية القائمة على اهتمامات المتكلم،ومقاصده، فتراعي حال السامع أثناء الخطاب ، كما تهتم بالظروف والأحوال الخارجية المحيطة بالعملية التواصلية من أجل كشف غرض المتكلم.

أدوات البحث كيفية تحليل النتائج:

التحليل والقياس على ما ورد في الآيات القرآنية، وما فسرت به تلك الآيات وما توصلت إليه الدراسات البلاغية القديمة، والدراسات التداولية المعاصرة في المقام أو ما يسمى باللسانيات التداولية أو (لسانيات الاستعمال) والتي تهتم بدراسة اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة، وعلى وفق أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين، ولابد من الإشارة والتأكيد في مقدمة بحثنا أننا لن يقف عند كل مفصل من مفاصل الخطة ؛ لذلك ستكون الدراسة على وفق مقامات مختارة لكل لفصل من فصول الدراسة ومن الله التوفيق.

التمهيد (مفهوم المقام في البلاغة العربية والتداولية)

المعنى نتاج مرحلة بناء مكتملة تتفاعل بقطبيها الداخلي والخارجي، لتقدم صورة جديدة مؤثرة للمتلقي، وهو ما تتفاضل فيه النصوص الفنية ؛ إلا أن كثيرا منها تفقد قيمتها في تقادم الزمن وبزوغ جيل جديد، وظروف اجتماعية، وثقافية، ومعرفية جديدة، لفقدانها عنصر التواصل الذي لا يمكن أن يتحقق من دون فهم تلك النصوص وملابسات إنتاجها (والناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة، إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها))(١).

ومن هنا يمكننا القول بأن اللغة كائن حي متجدد يستمد حيويته من التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، فيتأثر بنتاج المنظومة المعرفية للأفراد والجماعات، وفي النهاية لا يمكن الحكم على النصوص في جميع أشكالها من دون تقصي مقامها الذي قيلت فيه، فقد (ينحرف مستعمل الكلمة بالكلمة عن معناها إلى معنى قريب أو ما شابه فيعد من باب المجاز ويلقى قبولا من أبناء اللغة بسهولة)(٢)، فالرؤية الشاملة للنص هي التي تنصف معنى النص، وتؤدي إلى فهمه ؛ لذلك (يجب أن ننطلق من الخطاب نحو ذاته الداخلية والمخفية، أي نحو قلب فكرة أو دلالة يمكن أن تظهر فيه ؛ بل نذهب انطلاقا من الخطاب نفسه، وانطلاقا من ظهوره وانتظامه، نحو شروط إمكاناته الخارجية ، أي نحو ما يتيح من الفرصة لظهور السلسلة العرضية لهذه الأحداث، وما يرسم لها حدودها)(٣)، وعلى هذا النحو يكون لدينا نظرية مقامية تحمل منهجا يدقق النظر في محورين:

- محور داخلي: ويتضمن لغة النص التي نتلفظها أو نسطرها على الورق أو نسمعها والقائمة على أساس مجموعة من الحروف و الكلمات التي تنتظم بصياغة وطريقة معينة.
- محور خارجي: ويتضمن الظروف المحيطة بالنص اللغوي في محوره الداخلي، والتي يدقق بواسطتها بالعوامل الخارجية المؤثرة في إنتاج النص من جوانب نفسية، واجتماعية وثقافية.

ويبدو لنا ان كلا المحورين يتحكم بهما محور ثالث هو ما يعرف ب (المقام) الذي ظهر جليا في اهتمامات علماء العرب على الصعيد اللغوي والبلاغي، بل إن المقام مرتكز أساس ينطلق منه جل علماء العربية وفي شتى العلوم، وهو ما سنتتبعه في الدرس العربي قديما وحديثا فضلا عن رؤية التداولية المعاصرة له.

اهتم العرب بالدرس البلاغي كثيرا، ولم يكن هذا الاهتمام إلا لمجموعة من الأسباب منها اعتزازهم بلغتهم العربية التي آنستهم في حلهم وترحالهم، فمزجوها بمشاعرهم اتجاه ما يحيط بهم فتحولت إلى أبيات، وقصائد، ومعلقات، وداعبتها عقولهم فتحولت إلى حكم وأمثال وخطب وزاد تقديسهم لها بعد أن أصبحت لغة القرآن الكريم، الذي رفع من شأنها بمنحها القوة على المستوى السياسي والديني والإجتماعي، وعلى المستوى اللغوي الإعجازي، فزاد ذلك كله من حرصهم عليها، وحصر الاهتمام في النصوص الأدبية، لا سيما بعد ظهور اللحن عند بعض أهل العامة، فتوجه الدارسون لتسليط الضوء على الجوانب البلاغية في القرآن الكريم والشعر العربي ونثره، مستبعدين لغة الخطاب اليومي ؛ لأنهم يرونها بعيدة عن الإبداع، والتجدد والتفاعل، فهي لغة تواصلية عادية ثابتة لا ترتقي لمستوى لغة النصوص الفنية، وهو ما دفع البلاغيين وغيرهم من العلماء إلى استهداف اللغة الأدبية، مستبعدين

لغة التخاطب، ويبدو أن هذه النقطة هي النقطة الجوهرية التي قد تختلف فيها التداولية عن البلاغة، فالتداولية تستهدف لغة الخطاب اليومي(٤)، ولكن هذا الفرق لا ينفي التلاقي الكبير في مباحثهما لعناصر المتكلم والمتلقي، وطبيعة النص، وظروفه المحيطة.

وتأتي هذه الدراسة البلاغية لتعميق النظر في ذلك تطبيقيا بهدف (إعادة بناء المقام بناء على أساس من التاريخ ومن علم النفس والمجتمع العربي القديم والاقتصاد القديم أيضا والمزاوجة بيم كل أولئك بواسطة الخيال الخصب والعقل الثاقب) (٥) وفكرتنا تقوم على أساس تعميق النظر في مقام المتكلم في القرآن الكريم، وأثر ذلك كله في فهم المعنى.

الفصل الأول
المقام الإلهي في القرآن الكريم

قبل الخوض في دراسة المقام الإلهي لابد من التأكيد على ضرورة التفريق بين الذات الإلهية المنفردة التي لا يمكن أن يحيط بعلمها أحد، وبين الخطاب القرآني عندما يتوجه من الله سبحانه وتعالى إلى البشرية ؛ ليسهل على الناس ويُبسط كثيرا من القضايا التي لا تدركها عقولهم ؛ لتحقيق التواصل معهم على وفق مدركاتهم العقلية والعاطفية، ولما كان الخطاب القرآني خطابا عاما يصلح لكل زمان ومكان، و لا يجد العقل والإدراك صعوبة في تلقيه وفهمه والإيمان به، فهو خطاب وجداني عقلي في آن واحد على مر العصور(٦)، فلا ريب أن نجد التنوع في مقاماته بشكل كبير، وفكرة التنوع الكبير هذه بإيجاز تؤكد كثافة عنوان الفصل وتشعبه الذي يمكن أن يطول القرآن بكامله، فيظهر صعوبة التغطية لكل هذه الجوانب

ومن أجل ذلك كله بدت لنا فكرة تبدو لنا جديدة لدراسة المقام الإلهي في القرآن الكريم هذه الفكرة استقيناها من قوله تعالى: ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ × مَلِكِ النَّاسِ × إِلَهِ النَّاسِ × مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ))(٧) فبدت لنا في هذه السورة أن الخطاب الإلهي يتخذ ثلاث صور أو مقامات تختلف بإختلاف الظروف المحيطة بالنص، وحال المخاطب، وهي على النحو الآتي:

أولا: المقام الإلهي بوصفه ربا: وفيه غالبا ما تظهر صفات الأبوة والعطف والرحمة الإلهية بكل معانيها الظاهرة وغير الظاهرة، فيقترن هذا المقام بأصل إرادة الله الفعلية، فتتجسد في مقام المتكلم واضحة جلية، وغالبا ما يكون هذا الوصف في مقام الحديث مع عباده الذين أدركوا شأنه، وعرفوا فضله، و شعروا بقربه إليهم.

ثانيا: المقام الإلهي بوصفه ملكا: وفيه غالبا ما تظهر فيه صفات الملك الذي يملك مقادير مملكته، فيأمر الناس جميعا بأن ينتبهوا لما يملك من حولهم، فيحذرهم مرة، ويدعوهم للتأمل والتفكر مرة أخرى، ويؤنبهم لعدم تدبرهم في خلق السموات والأرض وجحدهم لخيراته الوافرة وخلق الموت والحياة.

ثالثا: المقام الإلهي بوصفه إلها، وفيه يكون التأكيد على الوحدانية التي تنطوي تحتها كل المسميات الأخرى ومن بينها الرب والملك والخالق والمصور وكل شيء تخيله أو لم يتخيله الإنسان، وعلى هذا الأساس يكون لكل منهم مقامه الخاص الذي يعبر عنه ؛ لذلك جاء تقسيم هذا الفصل بناء على فكرتنا التي ترى أن كلمة (الرب) و (الإله) و (الملك) لكل منها دلالة مختلفة، وظفت لمقام معين مختلف عن الآخر، ولو كانت متفقة في مقاماتها التي قيلت فيها في الخطاب القرآني، لما وجدت تلك المفردات بهذا التنوع.

وخلاصة القول في مقدمة هذا الفصل نقول إن المفردات الواردة في الخطاب القرآني الدالة على الله ليست ذات دلالة واحدة، ولو كانت كذلك لما تكررت في توظيفها في سورة الناس لذلك ستبنى دراستنا في المقام الإلهي على ثلاثة مباحث هي:

- المقام الإلهي بوصفه ربا.
- المقام الإلهي بوصفه ملكا.
- المقام الإلهي بوصفه إلها.

ويتعذر علينا إحاطتها كاملة في هذا الفصل، ونكتفي بالحديث عن مثال واحد فقط على وفق ما يقتضيه مقام المشاركة في المؤتمر في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ × وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ))(٨) والسورة الثانية في قوله تعالى: ((إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ))(٩).

فمن ينعم النظر في الآيتين الأخيرتين: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) وقوله تعالى: (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) يجد أن هناك تطابقا كليا في ألفاظهما إلا في

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

كلمتين ولكن على الرغم من هذا التطابق في جل ألفاظهما إلا أنهما وردا في مقامين مختلفين فالفعل الكلامي في الآية الأولى (فَاعْبُدُونِ) وفي الآية الثانية (فَاتَّقُونِ) يمكن رصدهما من خلال الدرس التداولي، و بما يسمى بأفعال التوجيهيات (directives)(١٠) ولكن نوع التوجيه مختلف باختلاف مقام كل منهما، ففي الأولى كان محط الحديث عن الدعوة إلى عبادة الله الواحد التي يقوم بها الأنبياء ولما كان المقام المتكلم مقام الحديث عن سيرة الأنبياء، ودعوتهم بأن يكونوا أمة واحدة وجب عليها عبادة الإله الواحد(١١)، وهي البداية الأولى التي يتخذها كل نبي من الأنبياء يرسل من عند الله، فورد في هذه السورة كثير من الأنبياء مثل: (ابراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، وداود وسليمان، وذا النون) ؛ لذلك سميت بسورة الأنبياء، ومن المسلمات العقلية أن من لا يعرف الله، ويعبده، لا يمكن له أن يتقي أمرا لا يعرفه ؛ لذلك استدعى المقام الفعل الكلامي القائم على أساس الأمر بالعبادة التي تعد من الواجبات الأساسية وتمنح لها الأولية في دعوة كل نبي، ففرض المقام توظيف هذا الفعل الكلامي (فَاعْبُدُونِ) ليتناسب مع موقف الدعوة.

أما في الفعل الكلامي في الآية الثانية (فَاتَّقُونِ) فمقام المتكلم يقوم على أساس أخذ العبرة من قبل جميع الناس الذين عرفوا الله، وعرفوا عبادته، لا سيما (الرسل)، وهي مرحلة تالية بعد معرفة الله وعبادته، فهو في خطاب لمن عرف الله، وعرف عبادته فهم (عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرد عن طلب المنفعة إلا ثواب الله فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة) (١٢)، فمقام المتكلم مع الرسل في الآية التي سبقتها في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ × وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)(١٣) وعليه جاء الفعل الكلامي طلبي بصيغة التوجيه، ولكن بمقام تقوى الله لا الدعوة للعبادة ؛ لأن العبادة أمر مفروغ منه عند الرسل، وعند المؤمنين، ولكن هناك من قد يعرف الله، ولكنه لا يعبده، وقد يعبد الله، ولكنه لا يتقيه في عمله، فاختلف نوع الفعل الكلامي بإختلاف مقام المتكلم.

الفصل الثاني
المقام البشري في القرآن الكريم

يتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث هي (مقام الأنبياء) و (مقام المؤمنين) و(مقام غير المؤمنين) ويصعب الحديث في المباحث كافة ونكتفي بمثال واحد لبيان هذا المقام في قوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ)(١٤)، فقد غير بعض المفسرين من معنى الآية بشكل كبير فمنهم من أخذ الفعل (أصلح) الوارد في قوله تعالى (أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) وادخله في باب الإصلاح وضده الفساد، وأنها كانت تمتلك لسانا بذيئا، فأصلح لسانها١٥.

ويبدو لنا لو كان هناك نظرة عامة لمقام (أم يحيى) في القرآن الكريم، لما حصر المفسرون مقامها في هذه الآية على هذا النحو، والذي يتعارض مع مقامها في المواضع القرآن من القرآن الكريم، إذ وقع المفسرون في مصيدة دلالة المفردة، وسحبها على الإصلاح في الأمور الأخلاقية والدينية من دون مراعاة المقام، ولو راعوا مقام الآية، لتوصل كما توصل غيرهم من المفسرين بأن المقصود في الإصلاح هنا، جعلها قادرة على الإنجاب بعد أن كانت عاقرا، وهذا ما يتجلى في مقام القول عند زكريا: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)(١٦)، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن مقام المتكلم، مقام فرح وبشرى لزكريا عليه السلام، وهذا يتنافى بأي شكل من الأشكال بتحليل الخطاب على سوء الخلق والدين، فهو يتنافى مع المقام الذي ورد ذكره لهذه الذرية في قوله تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) (١٧).

ومقام المتكلم لا يدفع المتلقي دائما نحو البحث عن المعنى خارج التشكيل الصوري للكلمات، فقد يأتي الخطاب ليحمل معنى مباشرا، يعززه مقام المتكلم ويعمقه، وهذا ما يأتي في الأفعال الكلامية المباشرة التي يقصد فيها المتكلم ما يقوله حرفيا، وهذا ما يحضر أيضا في الخطاب القرآني، منها قوله تعالى: (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)(١٨)، فكلام الله يحمل السلطة التي من شأنها تغيير قناعات المتلقي، والتأثر فيها، فيأخذ الفعل الكلامي أبعاده التطبيقية داخل حياة الفرد المسلم، ويتحول إلى أغراض ذات طبيعة إنجازية، لأن كلام الله عنده بمثابة قانون واجب التنفيذ، وهذا النوع من الأفعال الكلامية يطلق عليه في الدرس التداولي الحكميات (verdictives)(١٩)،

وهدفها:(حمل المخاطب بدرجات مختلفة على أداء عمل معين، أما اتجاه المطابقة فيكون من العالم إلى القول، أي إن العالم ينبغي أن يكون مطابقاً للقول أو بعبارة أخرى، يطلب مطابقته للقول)(٢٠).

وقوله تعالى: (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)، وكثير من الآيات الأخرى(٢١) جاء فيه الفعل الكلامي بصورته المباشرة، فالفعلان (أقيموا) و (آتوا) وردا بصيغة الأمر وهي صيغة مشهورة تستدعي الفعل بالقول ممن هو دونه في الخطاب عامة والقرآن الكريم خاصة، فورد الفعل الكلامي بصيغة الأمر جاء موافقا لمقام المتكلم، فجعل الخطاب بصيغته الصورية الشكلية المباشرة أكثر دلالة على الوجوب(٢٢)، وهذا ما تشير له كتب التفسير ما ورد في قوله تعالى: (أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) جاء على وجه الوجوب والإلزام، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين٢٣، وهذا الفعل الكلامي لا ينجز أبدا، ولا يحقق أثره بين صفوف المتلقين إن لم يتوافق مع سلطة المتكلم، ومقامه الذي يمكن أن يحقق عند المتلقين تلك الإستجابة.

الفصل الثالث
مقامات أخرى في القرآن الكريم

يتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث هي (مقام الملائكة) و (مقام الجن والعفريت) و (مقام الحيوان)، ونكتفي في هذا الفصل بالحديث عن مقام الملائكة، وفي مثال واحد فقط لضيق المقام ورد في قوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ × قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ × قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ × وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)(٢٤)

تنوعت التفسيرات الخاصة بالمحاورة الواردة في هذه الآية بين الله سبحانه وتعالى، وبين الملائكة فمنهم من عدها نوعا من أنواع التألم والتوجع والاستعلام (٢٥)، ومنهم من وضعها في مقام تعرف الملائكة عن ما جهلوه عن أمر هذا الخليفة(٢٦)، وهذا ما أيده بعض الباحثين بأن الإفاضات التي حصل عليها الملائكة في مقام لا يبيح لهم الاعتراض والإنكار ، لأنهم أعرف بجلالة المقام الإلهي فهم لا يعترضون على أمر أقره الله تعالى، لذا فإن سؤال الملائكة هو استفسار لا اعتراض(٢٧)، ولا ندري لمَ كل هذا التعقيد فيما ذهب إليه جل الباحثين القدامى والمحدثين فمقام التكلم واضح وجلي بأن الملائكة قد عرفوا آدم وإلا كيف يقولون: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء)، فهم قد عرفوا ذلك بدلالة المقام، ومن جانب آخر إذا كنا نريد أن نفسر بأن الملائكة دائما هم مطيعون فماذا نقول لإبليس الذي لم يسجد؟ وإذا فسرنا بأن إبليس ليس من الملائكة فما جدوى قول الله للملائكة (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) وهو يعلم بأن الملائكة لن تعصي له أمرا؟ ولا نريد الخوض في ذلك بقدر ما نريد أن نصل إلى نقطة مهمة وعميقة، كشفها الحجاج والمحاورة بين الله سبحانه وتعالى (المرسل) وبين الملائكة (المرسل إليه)، فهو يملك ما في السماوات وما في الأرض، ويملك الحياة والموت فلم يمنح هذه الحرية للملائكة وهم طائعون؟

من يعود ويعمق النظر في الآيات القرآنية لا سيما في القص القرآني، يجد أن الله سبحانه وتعالى يمنح المتكلم الحرية التامة للتعبير عن رأيه، وتفكيره في الأمور، والدفاع عن نفسه(٢٨). ومقام هذه الآية يكشف لنا عن طريقة إقناعية قدمها لنا القرآن الكريم في مقام حديثه مع الملائكة هدفها منح المخاطب حرية التفكير، والتعبير عن وجهة نظره، من خلال الرد، والمحاججة وهي طريقة نظر لها الدرس التداولي الحديث ؛ وأقر بجدواها، وأنها ذات تأثير أقوى في المخاطب، وأكثر ديمومة (لأنها تنبع من حصول الاقتناع عند المرسل إليه غالبا ، لا يشوبها فرض أو قوة)(٢٩)، فطرفي المحاججة قد قدم كل منهما حجته للوصول إلى مرحلة الإقناع فالملائكة منحوا حرية التعبير عن فكرتهم القائمة على أساس مجموعة من القناعات التي يرونها هم صائبة، فبدأ سلمهم الحجاجي على أساس حجتين:

×- الحجة الأولى التي قدمت عن طريق أسلوب الإستفهام بقولهم أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء؟ فمنح أسلوب الإستفهام مقام الملائكة تأدبهم ومراعاتهم لقداسة المتلقي من خلال خروج الإستفهام إلى معنى آخر هو التعجب من استخلاف الله سبحانه وتعالى وهو الحكيم أهل المعصية مكان أهل الطاعة(٣٠)، ويؤكد المفسرون أن

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الإستفهام في الآية الكريمة (محمول على حقيقته مضمن معنى التعجب.... لأن من كان شأنه الفساد والسفك لا يصلح للتعمير لأنه إذا عمر نقض ما عمره)(٣١)، والمقام هنا يشير للمساحة التعبيرية الواضحة الممنوحة للملائكة في الرد والمحاججة، وهو ما منح السلمة الحجاجية تصاعدا إلى مرحلة أخرى، قدمت عن طريق الحجة الثانية.

- الحجة الثانية قدمت بقولهم: (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) التي تقوم على أساس أفضليتهم بالاستخلاف ؛ لأنهم ثابتون على التسبيح والتقديس، على خلاف ما ستختاره، فسار الحجاج نحو الطرف الآخر عن طريق الواو، وهو من أهم الروابط الحجاجية، وأكثرها حضورا وقوة في القرآن الكريم، فترد كرابطة تعمق النتيجة الواحدة في الحجج المتساوقة كما ظهر لدينا في الحجتين السابقتين للملائكة، فهم ينتظرون الرد، ومن أجل تحقيق الإقناع الذي هو الهدف الأعلى في الخطاب القرآني حتى لو كان الله سبحانه وتعالى بسلطة أعلى ، وقادرا على عبور هذه المحاورة بالتصريح بأنه يعلم أكثر مما يعلمون هم وغيرهم، إلا أن هذا الأمر لا يكشفه المقام، وإنما يكشف عن تحول المقام من مقام الشمول الذي تجلى بقوله تعالى: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) إلى حجة أخص، فالملائكة متفقون على علم الله، وأنه أعلم بما لا يعلمون، ولكن مقام التكلم بحاجة إلى حجة تخصهم وحدهم من أجل تحقيق الإقناع، فالغرض التداولي من الحجاج هدفه الأساس الإقناع، فتحول الحجاج من العموم (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) وهي سمة شاملة للملائكة وغير الملائكة إلى الخصوص (خطاب الملائكة) من خلال تقديم حجة مادية ملموسة باختبارهم ميدانيا في قوله تعالى: (أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وهنا عجزوا عن معرفة ذلك فقالوا: (سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فتوجه الحجاج نحو الانخفاض عن طريق العامل الحجاجي (لا...إلا) الظاهر في كلام الملائكة في آخر المطاف (لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا)، فجاء أسلوب القصر ليكشف مقام الملائكة وتأدبهم في الكلام مع الله سبحانه وتعالى من جانب ومن جانب آخر(أفاد الاستثناء الوارد بعد الأداة (إلا) في هذا التركيب تدعيما للحجة المتضمنة في قول الملائكة: (لاَ عِلْمَ لَنَا). إنه إعتراف بالعجز وطلب للاعتذار من الله سبحانه وتعالى عن مراجعتهم إياه - حينما أخبرهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة)(٣٢)، ومن تجليات الحجاج التي تشير أو تبين وصول الملائكة إلى قناعة كاملة، ما كشفه مقام التكلم عن طريق الفعل الكلامي التوجيهي في قوله تعالى: (أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فكشف أسلوب الإستفهام التقريري عن هذه القناعة عند الملائكة.

الهوامش:

١ - النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب: محمد الصغير بناني: دار الحداثة: بيروت: ١٩٨٦م: ١٧٤.

٢ - علم الدلالة: أحمد مختار عمر: عالم الكتب: القاهرة: ط٦: ٢٠٠٦م: ٢٤٠.

٣ - نظام الخطاب: ميشيل فوكو: ترجمة محمد سبيلا: دار التنوير: دار الفارابي: بيروت: ٢٠٠٧م: ٣٩.

٤ - الأبعاد التداولية في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) لسكاكي: أم الخير سلفاوي: رسالة ماجستير: كلية الآداب واللغات: جامعة قاصدي مرباح ورقلة: الجزائر: ٢٠٠٩م: ٣٨- ٣٩.

٥ - المصدر نفسه: ٢٧٣.

٦ - ينظر: الخطاب النفسي في القرآن الكريم (دراسة دلالية أسلوبية): د. كريم حسين ناصح الخالدي: دار صفاء للنشر والتوزيع: عمان - الأردن: ط١: ٢٠٠٧م: ١٥.

٧ - سورة الناس: ١-٤.

٨ - سورة المؤمنون: ٥١- ٥٢.

٩ - سورة الأنبياء: ٩٢.

١٠ - التوجيهيات: هي صنف من أصناف أفعال الكلام تعني توجيه المتكلم المخاطب لفعل شيء ما، ويدخل فيها أساليب الأمر والنصح، والتشجيع، والإستعطاف، ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د. محمود أحمد نحلة:دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية ٢٠٠٢م: ٤٨-٤٩.

١١ - ينظر: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجو التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨ه) تح. خليل مأمون: دار المعارف- بيروت: ط٣: ٢٠٠٩م: ٦٨٦/١٧.

١٢ - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر: ١٨/ ٧.

١٣ - سورة المؤمنون: ٥١- ٥٢.

١٤ - سورة الأنبياء: ٩٠.

١٥ - ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب صديق بن حسن بن علي البخاري (ت١٣٠٧ه): تح: الشيخ عبد الرزاق المهدي: دار الكتاب: بيروت – لبنان: ٢٠٠٨م: ٤: ٣٧١.

١٦ - سورة آل عمران: ٤٠.

١٧ - سورة الأنبياء: ٩٠.

١٨ - سورة الحج: ٧٨.

١٩ - الحكميات: وهي الأفعال التي تقوم على أساس من يمتلك السلطة فتصدر منه للإعلان عن حكم وتنفيذ أمر ما، ينظر: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ: محمود عكاشة: مكتبة الآداب: القاهرة: ٢٠١٣م: ١٠١، وأفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦.

٢٠ - الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة – دراسة نحوية تداولية: د. خالد ميلاد: جامعة منوبه، المؤسسة العربية للتوزيع: تونس ط ١: ٢٠٠١ م: ٥٠٦.

٢١ - ينظر: سورة البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، وسورة النساء ٧٧، وسورة النور: ٥٦، وسورة المجادلة: ٨٣، وسورة المزمل: ٢٠

٢٢ - ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ج. أوستن: ترجمة عبد القادر قنيني: أفريقيا الشرق:١٩٩١م: ٩١.

٢٣ - ينظر: الكشاف: ١ / ٧٤، التبيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠ه): تح. أحمد حبيب العاملي: الأميرة للطباعة والنشر: بيروت – لبنان: ط١: ٢٠١٠م: ١/ ٢٥٧، الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي: دار الأضواء: بيروت – لبنان: د.ت: ٥:٥.

٢٤ - سورة البقرة: ٣١- ٣٤.

٢٥ - ينظر: التبيان: ١ / ٢٠٠.

٢٦- ينظر: الميزان: ج١: ١٠١.

٢٧ - ينظر: بنية الكلام بين المتحاورين (دراسة تفسيرية): رسالة دكتوراه: وجدان مهدي حسين: كلية الفقه: جامعة الكوفة: ٢٠١٤م: ٤٧.

٢٨ - ينظر مثلا دفاع زليخة أمام العزيز، أو حديث فرعون لقومه، أو حديث أخوة يوسف وأمثلة كثيرة في هذا الباب.

٢٩- إستراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية-: عبد الهادي بن ظافر الشهري:دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت ، لبنان: ط٢٠٠٤:١م: ٤٤٥.

٣٠ - تفسير الكشاف: ١/ ٧٢.

٣١ - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر: تونس: د.ت: ١٩٨٤م: ١/ ٤٠٢.

٣٢ - الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني – سورة البقرة أنموذجا-: رسالة ماجستير: عيسى تومي: قسم الآداب واللغة العربية: كلية الآداب واللغات: جامعة محمد خيضر: الجزائر: ٢٠١٥م.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: د. محمود أحمد نحلة:دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية ٢٠٠٢م.
- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة – دراسة نحوية تداولية: د. خالد ميلاد: جامعة منوبه، المؤسسة العربية للتوزيع: تونس ط ١: ٢٠٠١ م.
- إستراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية-: عبد الهادي بن ظافر الشهري:دار الكتاب الجديد المتحدة: بيروت ، لبنان: ط١:٢٠٠٤م.
- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور: الدار التونسية للنشر: تونس: د.ت: ١٩٨٤م.
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: تح. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض: مكتبة العبيكان: الرياض: ط١: ١٩٩٨م.
- التبيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠ه): تح. أحمد حبيب العاملي: الأميرة للطباعة والنشر: بيروت – لبنان: ط١: ٢٠١٠م.
- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي: ١١: ٣٣٦، وينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي: ١٤٠٣ه.
- الخطاب النفسي في القرآن الكريم (دراسة دلالية أسلوبية): د. كريم حسين ناصح الخالدي: دار صفاء للنشر والتوزيع: عمان – الأردن: ط١: ٢٠٠٧م.
- علم الدلالة: أحمد مختار عمر: عالم الكتب: القاهرة: ط٦: ٢٠٠٦م.
- ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطيب صديق بن حسن بن علي البخاري (ت١٣٠٧ه): تح: الشيخ عبد الرزاق المهدي: دار الكتاب: بيروت – لبنان: ٢٠٠٨م.
- مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم: الهادي حمو: مطبعة النهضة: د. ت.
- الميزان في تفسير القرآن: السيد محمد حسين الطباطبائي: دار الأضواء: بيروت – لبنان: د.ت.
- نظام الخطاب: ميشيل فوكو: ترجمة محمد سبيلا: دار التنوير: دار الفارابي: بيروت: ٢٠٠٧م.
- النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب: محمد الصغير بناني: دار الحداثة: بيروت: ١٩٨٦م.
- نظرية أفعال الكلام العامة: ج. أوستن: ترجمة عبد القادر قنيني: أفريقيا الشرق:١٩٩١م.
- نظرات معاصرة في القرآن الكريم: د. محمد حسين الصغير.
- النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ: محمود عكاشة: مكتبة الآداب: القاهرة: ٢٠١٣م.
- الرسائل الجامعية:
- الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني – سورة البقرة إنموذجا-: رسالة ماجستير: عيسى تومي: قسم الآداب واللغة العربية: كلية الآداب واللغات: جامعة محمد خيضر: الجزائر: ٢٠١٥م.
- الأبعاد التداولية في البلاغة العربية من خلال (مفتاح العلوم) لسكاكي: أم الخير سلفاوي: رسالة ماجستير: كلية الآداب واللغات: جامعة قاصدي مرباح ورقلة: الجزائر: ٢٠٠٩م.
- بنية الكلام بين المتحاورين (دراسة تفسيرية): رسالة دكتوراه: وجدان مهدي حسين: كلية الفقه: جامعة الكوفة: ٢٠١٤م.